المحاضرة الأولى

مفهوم الشعر

كان احتفال العرب بالشعر شديدا، وكان اهتمام النقد الأدبي بتأسيس علمه ودراسة متونه قويا، ولكن الاهتمام بتعريفه، والتمييز بينه وبين بقية أجناس الأدب بدا نادرا، واستمر قليلا؛ فكأنما كان لدى العرب القدامى إجماع ضمني على أن الشعر هو هذا الضرب المتميز من الكلام الذي يعرفه الجميع، ولا يلتبس شكله على أحد من الناس، وأن لا وجه لتعريف ما هو معروف، وتمييز ما هو أوضح تميزا من جميع ضروب الكلام، وأن الشأن هو في معرفة عمود الشعر، ووضع أصول صناعته، وتمييز جيده من رديئه، وكشف أسرار بلاغته وكنه شعريته. فثار جدل قوي ثري حول عمود الشعر، ولم يثر جدل واختلاف حول حده ومفهومه.

لقد عكف النقد العربي القديم على دراسة الخصائص والشروط التي يصير بها الشعر قويا وجيدا، والشاعر مبدعا ومتفوقا. ولم يعن إلا قليلا بتحديد ما يدخل به الكلام حد الشعر، أو ما يخرج من الكلام عن هذا الحد. وقد كان الجاحظ سباقا إلى تعريف الشعر[1]، فلم ير داعيا إلى أن يقدم تعريفا جامعا مانعا، بلغة أهل المنطق، بل عرف الشعر باعتباره أسلوبا وشكلا في التصوير والنسج لئلا يقيم الشعر باعتبار مادته ومعناه، وذكر له من الخصائص ما يكون به شعرا بحق لا ما يكون به شعرا وحسب؛ فإن الكلام يمكن أن يكون شعرا ويمكن أن يكون نثرا أو مجرد نظم، وإن الشعر يمكن أن يكون جيدا حيا قويا ويمكن أن يكون باردا غثا رديئا. ولا حديث عن الشعرية إلا بعد الحصول على الشعر ذاته.

يقصد بمفهوم الشعر في هذا المقام تعريفه الذي يحدد الخصائص الجوهرية التي يعرف بها دون سواه ويتميز بها عن غيره، ويفترض في هذا التعريف أن يكون جامعا للخصائص التي لا يكمل جوهر الشيء إلا بها، ومانعا أن يكون في غيره من الخصائص ما يجعله حقيقا أن يدخل جنس الشعر بها. وهي مهمة تأخرت إلى عهد ابن طباطبا في "عيار الشعر" وقدامة ابن جعفر في "نقد الشعر". ولم تأخذ حظها من التأصيل إلا على يد الفلاسفة المسلمين، في عهد صار أكثر ميلا إلى تأصيل العلوم، وضبط المفاهيم، ووضع القواعد والأصول.

---

[1] الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1412هـ-1992م، ج3، ص131.

1. الشعر كلام منظوم:

يطالعنا ابن طباطبا العلوي بأول تعريف علمي للشعر، يحدد فيه ماهيته، ويذكر فيه خاصيته، فهو يقول:

"الشعر– أسعدك الله– كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماع، و فسد على الذوق.ونظمه معلوم محدود؛ فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به..."[2].

إن ابن طباطبا يعرّف الشعر في كلمتين فيستوعب مادته وشكله، ثم يضيف إليهما كلمتين فيميزه بشكله عما يشترك معه في مادته، ثم إذ عين ماهيته يذهب في تحديد خاصيته، فيجتمع من تعريفه أن الشعر، الذي مادته الكلام، إنما جوهره الذي به يتأسس ويتميز هو النظم، وأن النظم الذي هو خاصيته وميزته على النثر ليس نظما مجهولا مطلقا كما هو نظم الكلام عموما، بل هو نظم معلوم محدود. ولم يشأ ابن طباطبا أن يدخل في التفاصيل فيذكر أن هذا النظم المعلوم هو الوزن والقافية، بل اكتفى بالإشارة إلى ذلك إشارة بذكر العروض، وهو –لا شك– يعول بهذه الإشارة الموجزة على الإجماع الضمني لدى العرب القدامى على أن الخاصية الأساسية في الشعر هي الوزن والقافية.

ويظهر تعريف ابن طباطبا قد حقق في عصره، صفة أساسية لازمة في كل تعريف علمي، وهي أن يكون مانعا؛ إذ لم تكن قد ظهرت بعد في عصره المنظومات غير الشعرية، ولم يكن متميزا بهذه الخاصية غير الشعر، وأما صفة "الجامع"فلعلها لم تكن في نظره مطلوبة في حد الشعر، لأنها في عموده، أي في شروط شعريته، ولعل هذا هو ما حمله على القول:

"والشعر على تحصيل جنسه ومعرفة اسمه متشابه الجملة، متفاوت التفصيل، مختلف كاختلاف الناس في صورهم، وأصواتهم، وعقولهم، وحظوظهم، وشمائلهم، وأخلاقهم، فهم متفاضلون في هذه المعاني، وكذلك الأشعار هي متفاضلة في الحسن، على تساويها في الجنس؛ ومواقعها من اختيار الناس إياها كمواقع الصور الحسنة عندهم، واختيارهم لما يستحسنونه منها. ولكل اختيار يؤثره، وهوى يتبعه، وبغية لا يستبدل بها، ولا يؤثر سواها"[3].

وكأن ابن طباطبا يشير إلى أن تعريفه للشعر هو تحديد لجنسه وما يدخل تحت اسمه، وليس إجمالا لكل عناصره وجميع صفاته، وينبه إلى أن الحديث عن الشعر اسما وجنسا هو غير الحديث عن الشعر

---

(2) ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، ط3، د.ت. ص41.

(3) المصدر السابق، ص45.

تفصيلا ووصفا، فهو لذلك يمثل للشعر في تشابهه جملة، وتفاوته تفصيلا، بالناس في اختلافهم صورا وأخلاقا وغير ذلك مع تساويهم في الجنس. وكأنما هو يقول: إن الشعر باعتباره جنسا لا يختلف في تعيينه وتمييزه ومعرفته، كما لا يختلف في تعيين الإنسان وتمييزه عن النبات أو الجماد أو الحيوان، وإنما يختلف الناس في الاستجادة والاختيار لما هو من جنس واحد، ولكنه متفاوت في القيمة متفاضل في الحسن.

إن تعريف ابن طباطبا يدعو إلى الفصل بين تعريف الشعر باعتباره جنسا، وتقييمه باعتباره صناعة وفنا ومهارة واختيارا، وهو ما يعني أن القول بأن هذا الضرب من الكلام شعر ليس حكما له بالجودة، أو هذا الضرب من الكلام ليس بشعر ليس حكما عليه بالرداءة. كما يتضمن القول أن الشعر والنثر يمكن أن يتشابها في كثير من الخصائص، ويشتركا في كثير من المزايا، ولكن خاصية الشعر الجوهرية التي بها يتحدد ويتميز ويختلف عن النثر إنما هي النظم (المعلوم المحدود) لا غير.

2- الشعر قول موزون مقفى:

عبّر تعريف ابن طباطبا عن الإجماع الضمني بين العرب على أن الكلام منثور ومنظوم، وأن الشعر هو هذا المنظوم الذي نظمه معلوم ومحدود، وميزانه الطبع والذوق قبل أن يصير علم العروض. وأن جوهر هذا النظم الذي يخص الشعر دون سائر أجناس الكلام هو الوزن والقافية.

ومنذ هذا التعريف، الذي لم يزد على وصف الواقع الشعري كما هو، أصبح النظم هو عنوان الشعر وخاصيته الجوهرية؛ فلم يأت من بعده ناقد أو فيلسوف إلا وجعل هذا النظم المعلوم المحدود الذي هو الوزن والقافية في طليعة تعريفه للشعر أو في صميم تصوره لحقيقته، فظل التعريف يتسع بإضافة الخصائص، أو يكتمل باستيفاء الشروط، ولكنه لم يعرف إهمالا لهذين الركنين الأساسيين في بنية الشعر: الوزن والقافية.

لقد جاء بعد ابن طباطبا قدامة بن جعفر، وحاول مثله صياغة علم للشعر، فحافظ على جوهر تعريف ابن طباطبا، ولم يزد على أن أوضح العبارة وفصل المجمل، وسمى الموصوف؛ فعبر عن الكلام بـ"القول الدال على معنى"، وعن المنظوم بالموزون المقفى، فأصبح تعريف الشعر هو "القول الموزون المقفى الدال على معنى"[4]. وظلّ الشعر من بعده يعرف بأنه "الكلام الموزون المقفى".

كان هدف النقاد الذين التزموا هذا التعريف هو التزام منهج علمي منطقي في وصف الظواهر وتصنيف الأشكال وتمييز الأجناس يقوم على تحديد المادة وتعيين الجنس وتوضيح الحدود التي تفصل بين جنس وجنس، قبل المضي إلى تحليل المادة وتفصيل خصائصها وتمييز جيدها من رديئها، ووضع المبادئ

(4) قدامة ابن جعفر، نقد الشعر،، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بمصر، 1963م، ص17.

والأصول، والمقاييس والشروط، التي يمكن أن تعرض عليها المادة المتفق على جنسها وحدها واسمها، كي يُعمل فيها عمل آخر غير التعريف والتحديد والتقييم والوصف.

إن التعريف الذي قدمه قدامة، وتابعه عليه المرزوقي[5] وابن رشيق[6]، وغيرهما، لم يكن القصد منه وصف الشعر واستيفاء شروطه وخصائصه. فتلك مهمة اضطلع بها النقد القديم خارج موضوع التعريف. إنما كان القصد هو تعريف الشعر بمادته وخاصيته، ووضع الحدود التي تفصله وتميزه عن سواه، وتمنع أن يلتبس به ما ليس منه، لذلك فهو— كما ينبه جابر عصفور- تعريف جامع مانع للمادة فحسب، ولا ينطوي على أي تحديد للقيمة، ولا يميز ما يمكن أن نسميه "الشعر الحق" عما ليس كذلك.. فإن تحديد القيمة أو التمييز بين الشعر والنظم هي مهمة أخرى قوامها البحث عن الخصائص المميزة التي إذا تعاورت المادة المعرفة— وهي الكلام الموزون المقفى- صارت المادة في غاية الجودة، فتصبح شعرا بحق، أو في غاية الرداءة، فيصبح مجرد نظم بلا قيمة، أو تندرج بين هذين الطرفين، فتحدد قيمتها تبعا لموقعها من هذين النقيضين[7].

ومما يدل على أن قصدهم هو وضع الحدود الفاصلة لا استيفاء الخصائص والشروط، أن ابن رشيق حمله الاحتراز من دخول ما اتفق له الوزن من عبارات القرآن وأقوال النبي- عليه الصلاة والسلام- ضمن تعريف الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى- حمله ذلك على إضافة حد آخر يمنع اعتبار ما ذكر شعرا، وهو حد القصد والنية، وليس المقام هنا هو مقام مناقشة هذا الحد، فقد يستقيم وقد لا يستقيم، وإنما هو تنبيه إلى أن تعريف هؤلاء قد أصاب هدفه، واستوفى شروطه، ولا يصح أن يتهم أصحابه بأنهم حصروا الشعرية في الوزن والقافية، وعرفوا الشعر بأشكاله الجامدة لا جوهره العميق وروحه النابضة؛ فإن لهؤلاء جميعا حديثا طويلا في خصائص الشعر وأسرار بلاغته وشروط شعريته، ولكنهم يعتبرون ذلك شأنا يتعلق بشروط الجودة لا شروط الوجود، وبحثا يتصل بالقيمة لا بالتسمية، وهم في ذلك على صواب بيّن ومنهاج سليم، وإنما القصور— في تعريفهم- أن ما جد من المنظومات الفقهية والعلمية كشف أن من الكلام ما هو موزون مقفى ولكنه ليس شعرا، فوجب تدارك هذا القصور، وهي المهمة التي اضطلع بها من لهم ولع باستيفاء الخصائص واستقصاء الصفات وضبط الحدود وتدقيق المفاهيم، وهم أهل المنطق والفلسفة، أو ما يعرف في الخطاب العربي الحديث بالفلاسفة المسلمين.

---

(5) ينظر: المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، دار الجيل ، بيروت، ط1، 1411هـ- 1991، 8/1.

(6) ينظر: ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1401هـ-1981م، 1/ 199.

(7) جابر عصفور، مفهوم الشعر: دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط5، 1995م، ص64-65.

3.الشعر كلام منظوم مخيّل:

استقر في الفكر النقدي العربي تعريف الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى، ثم جدّ من أشكال النظم ما كشف قصور هذا التعريف، وحصل من اتصال الثقافة العربية بفلسفة اليونان ما حمل على إعادة النظر في مدى كفاية هذا التعريف. فكان أن حدث تحول نوعي في مفهوم الشعر، لم يقم على الإبطال والنقض، ولكنه قام على الإضافة والضبط، وعلى الإحاطة والاستغراق. وقد تمثلت الإضافة في اعتبار التخييل جوهرا آخر في بنية الشعر يضاف إلى جوهر الإيقاع أو الوزن، وتمثلت الإحاطة في صياغة تعريف للشعر يستغرق شعر العالم كله، مما حدا ببعض الفلاسفة إلى تمييز أشعار العرب بأنها مقفاة، وكان حاصل هذا التحول أن بقي الوزن والقافية ثابتين من ثوابت الشعر وركنين من أركانه، وقام الخيال جوهرا ثانيا وخاصية أساسا في بنية الشعر، ومال الأمر إلى المزج بين القيمة والتسمية، وبين الروح والمادة، أو بين الشعر مفهوما وحدا، والشعر عمودا وروحا. ولعل هذا هو جوهر الاختلاف بين التعريف القديم والتعريف الجديد؛ فإن النقاد القدامى ما أنكروا دور الخيال في صنعة الشعر، ولا ذكروا أن الوزن والقافية هما روح الشعر وجوهره. بل إن لهم حديثا غير ذلك في اعتبار الشعر جنسا من التصوير وضربا من النسج، وبناء عموده على كثرة الماء وشرف المعنى وإصابة الوصف وحسن التمثيل وبراعة الاستعارة، وفي النظر بعين الاستهانة والإهمال لكل شعر ليس له من ملامح الشعر سوى الوزن والقافية، ولكنهم آثروا الفصل بين القيمة والتسمية، وبين الجملة والتفاصيل، وبين العمود والحد، فكان تعريفهم على ذلك النحو.

وإذ تغير تعريف الشعر لدى الفلاسفة بعض التغير، وزحزح موقع الوزن والقافية في بنية الشعر بعض الزحزحة، وارتقى مقام الخيال في صنعة الشعر رقيا يبالغ في استثماره –لدعم موقفه– بعض النقد الحديث، فإن أسئلة جديرة بأن تسأل هاهنا، وهي:

- هل كان صوابا أن يعاد النظر في تعريف الشعر، وأن يضاف إلى حده عنصر جديد هو التخييل أو المحاكاة؟
- هل انبثق التعريف الجديد من واقع الشعر العربي، فهو يصفه ويعنيه، ويلزم الشاعر والناقد العربي أن يأخذا به؟
- أي التعريفين أصوب وأقرب إلى الواقع والحقيقة: القديم أم الجديد، النقدي أم الفلسفي، العربي الأصيل أم المتأثر بفلسفة اليونان؟
- هل في التعريف القديم من القصور أو الفساد ما يحمل على رفضه؟ وهل في التعريف الجديد من الصحة والكمال ما يغري بالأخذ به، ومن الثورة والحداثة والمغايرة ما يفتح لبعض النقد الحديث

وجها للاستناد إليه في الثورة على المفهوم القديم للشعر، والحملة على ثابتيه الركينين وركنيه الأساسيين: الوزن والقافية؟

أما جواب السؤال الأول فنجده لدى عالم متأخر هو ابن خلدون؛ فقد ساير النقاد القدامى في تعريفهم الشعر باعتبار حدّيه البارزين: الوزن والقافية، فقال إن كلام العرب على فنين: منظوم ومنثور، وأن الشعر هو الكلام الموزون المقفى[8]. ولكنه ما لبث أن اتخذ له رأيا غير هذا، فعدل عن التعريف القديم الذي نسبه إلى العروضيين، ووصفه بأنه نظر في وزن مجرد عن الألفاظ ودلالاتها[9]. وعمد إلى تعريف للشعر جديد باعتبار ما فيه من الإعراب والوزن والبلاغة والقوالب الخاصة، فكان تعريفه هو أن "الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي... الجاري على أساليب العرب المخصوصة به. فقولنا الكلام البليغ جنس، وقولنا المبني على الاستعارة والأوصاف فصل له عما يخلو من هذه، فإنه في الغالب ليس بشعر، وقولنا المفصل باجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل... وقولنا الجاري على أساليب الشعر المعروفة، فإنه حينئذ لا يكون شعرا، إنما هو كلام منظوم لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور. وكذلك أساليب المنثور لا تكون للشعر."[10].

ويظهر من كلام ابن خلدون أن عدوله إلى تعريف جديد على قدر من الوجاهة لا يمكن إنكاره؛ فإن التعريف العروضي يصلح أن يكون مانعا لدخول دائرة الشعر ما ليس منه، إذا صرفنا النظر عن المنظومات العلمية التي لم يقصد ناظموها أصلا عدها من الشعر. ولكنه لا يصلح أن يكون دليلا على حقيقة الشعر، وجامعا لجميع الخصائص التي تقوم على أركانها بنية الشعر، إذ الواقع المعاين أن الشعر الذي نتناقله ونقرؤه ليس مجرد كلام موزون مقفى، بل هو على أوضاع من التركيب وأشكال من البناء وألوان من التعبير الخاص، بها تتأسس شعريته، ويتميز أسلوبه عن أسلوب النثر، وأوضح هذه الأوضاع والأساليب تركيبه النحوي المتميز، وغلبة اعتماده على الأوصاف والاستعارة، فهي أساليب تخصه دون النثر كما هو واقعه إلى غاية ذلك العصر، ولذلك وجب التنبيه إلى تلك الخصائص في التعريف الصحيح للشعر.

ولكن تمحيص تلك الخصائص سيكشف أن أكثرها عرضة للتهافت، ولا يصلح أن يكون فاصلا بين الشعر والنثر، فالبلاغة صفة في الشعر الجيد والنثر الجيد على حد سواء، والأوصاف والاستعارة لا يخلو

---

(8) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م، ص458.

(9) المصدر السابق، ص463.

(10) المصدر السابق ، ص463.

منهما النثر، وقد يخلو منهما بعض من الشعر، والأساليب المخصوصة بشاعر من الشعراء أو عصر من العصور أو أمة من الأمم لا يصح أن تجعل في جوهر الشعر وتفرض على كل الشعراء وكل العصور، وإلا أقحمنا على الشعر من الشروط ما ليس في جوهره وحدّه، وأقصينا من الشعراء من دائرة الشعر من هم الأكثر إبداعا والأوفر شاعرية[11]. وهكذا لا يصمد من الخصائص التي ذكرها ابن خلدون في تعريف الشعر سوى "المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي" أي: الوزن والقافية. وهو ما يعني أن الخصائص التي زادها تصلح أن تكون أوصافا ولا تصلح أن تكون حدودا.

إن أقرب الأوصاف إلى تحديد جوهر الشعر في تعريف ابن خلدون هو قوله "المبني على الاستعارة والأوصاف" فصلا له عما يخلو من هذه لأنه في الغالب ليس بشعر. فهذه الخاصية جديرة بأن تضاف إلى جوهر الشعر، بل أن تعد روحه وقوامه، وحرية بأن تدخل في تعريفه، بل أن تعد ضمن شروطه وخصائصه، ولكن هذا من شأنه أن يحدث إرباكا في موضوع الفرق بين الشعر والنثر، لا يتسنى الخلاص من فعله إلا بالعودة إلى التعريف القديم. وهذا ما يعيدنا إلى صلب الموضوع وبؤرة الجدل، وهو مفهوم الشعر لدى الفلاسفة المسلمين..

تأثر الفلاسفة المسلمون بكتاب أرسطو في فن الشعر، فكانت استفادتهم منه في تأسيس نظرية الشعر بمقدار اغترابهم عن واقع الشعر العربي وحقائقه الموضوعية، إذ ظهر حديثهم عن التخييل والمحاكاة، بل وحتى عن الحركات والسكنات، وكأنما هو حديث عن شعر اليونان لا شعر العرب، وظهر تعريفهم للشعر عليه أثر النقل من تربة ثقافية إلى غيرها، ولكن ذلك لم يفض بهم إلى حد الثورة على المفهوم القديم ونقض حدوده ومعالمه، فقد ظلّ الوزن والقافية في الصميم وظل الكلام المخيل بغيرهما خارج دائرة الشعر[12].

يقول الفارابي في تعريف الشعر: "قوام الشعر وجوهره عند القدماء هو أن يكون قولا مؤلفا مما يحاكي الأمر. وأن يكون مقسوما بأجزاء ينطق بها في أزمنة متساوية، ثم سائر ما فيه فليس بضروري في قوام جوهره، وإنما هي أشياء يصير بها الشعر أفضل"[13].

وهذا أول تعريف يضيف عنصر المحاكاة تأثرا بأرسطو، ويقدمه على الوزن، ويجعل قوام الشعر الذي به يتأسس في العنصرين لا غير، ويهمل شأن القافية، باعتبارها خاصية في الشعر الغربي لا الشعر

---

(11) يساير ابن خلدون رأي من يرى أن المتنبي والمعري ليسا شاعرين لأنهما نسجا على غير الأساليب العربية.

(12) ينظر في هذا الشأن: ألفت محمد كمال عبد العزيز، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، الهيئة المصرية العامة، ص463.

(13) يقول الفارابي في هذا الشأن: "إن للعرب من العناية بنهايات الأبيات التي في الشعر أكثرمما لكثير من الأمم التي عرفنا أشعارهم": (الفارابي، جوامع الشعر، مع تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر، تحقيق سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971، ص171- 173).

مطلقا[14]، وهو ما يؤكده ابن سينا من بعده، حين يعرف الشعر بأنه "كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة"[15]. ولعل هذا هو خلاصة ما استقر عليه التحديد الفلسفي لمفهوم الشعر، إلى أن جاء حازم القرطاجني بنزعته التي تمزج النقد والبلاغة بالمنطق والفلسفة، فصاغ تعريفا للشعر هو الأكمل والأوفى والأكثر إحاطة بحدود الشعر وخصائصه، وموافقة لواقعه وثوابته، فهو يقول مقتفيا رأي ابن سينا ومتابعا تعريف الفلاسفة، مقدما عنصر الخيال:

"الشعر كلام مخيل موزون مختص في لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك، والتئامه من مقدمات مخيلة، صادقة كانت أو كاذبة، لا يشترط فيها- بما هي شعر- غير التخييل"[16]، فيوحي كلامه باعتبار التخييل جوهرا في ماهية الشعر وشرطا في قيامه، وباقتفائه أثر الفلاسفة في انبثاق تصورهم عن طيات كتاب أرسطو في فن الشعر لا من واقع الشعر العربي، ومحاولة إسقاط نظرية أرسطو على تربة هذا الواقع الشعري العريق. ولكن حازما يحزم في موضع آخر موقفه ويحسم رأيه، فينحاز إلى شعر العرب، ويجعل من معارفه الفلسفة التي استقاها من أرسطو وفلاسفة المسلمين مجرد معين على تصور حقيقة الشعر لدى العرب أساسا، فيصوغ تعريفا جامعا مانعا بحق، يقول:

"الشعر كلام موزون مقفى، من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ويكره إليها ما قصد تكريهه، ليحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها، أو متصورة بحسب هيئة تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو بمجموع ذلك، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من الإغراب"[17].

وهذه هي المرة الأولى التي يكتمل فيها تعريف الشعر باعتبار مادته وشكله وغايته ووسيلته، ويتم فيها ترتيب عناصر التعريف ترتيبا علميا منطقيا محكما، يضع المادة مدخلا، والشكل الخارجي عنوانا، والغاية أو المهمة تمييزا، والأداة أو الوسيلة تخصيصا ووصفا ؛ فتجتمع الحدود التي تفصل الجنس عن غيره وتمنع دخول الغير في دائرته، مع الخصائص التي تعرفه وتحيط بوصفه على الجملة، وتجمع شروط عمله وطرائق أدائه لمهمته.

وفي هذا التعريف يعود الوزن والقافية إلى موقعهما في الصدارة كما كانا في التعريف القديم، باعتبارهما جوهرا في ماهية الشيء وعنوانا على الجنس، ويأخذ التخييل موقعه المناسب باعتباره جوهرا ثانيا

---

(14) جوامع الشعر، ص172.

(15) ينظر: ابن سينا ، فن الشعر، من كتاب الشفاء، (ضمن: أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973، ص161).

(16) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3،1986م، ص89.

(17) المصدر السابق ، ص71.

أقل ضرورة في تحديد الماهية وتمييز الجنس، وتصبح الغاية والوسيلة مانعا لدخول النظم العلمي وما شابه وقارب في دائرة الشعر، ويتوسع في مفهوم التخييل بما يجعل اعتباره جوهرا من الصحة والوجاهة بحيث لا ينكره واقع الشعر. وهكذا يقف حازم نموذجا للناقد الحصيف البصير والمفكر المبدع الأصيل الذي تتلاقح عنده الثقافات وتتكامل المعارف، ويتواصل القديم مع الجديد والأصيل مع الدخيل بحيث يتشكل صرح الحقيقة والمعرفة.

إن مفهوم الشعر، في تعريف الفلاسفة، قد ابتعد مسافة عن واقع الشعر العربي فأعاده حازم. وإن حازما لم يختلف مع التعريف القديم، بل أكده وأغناه، وإن الفرق بين تعريف حازم والتعريف القديم هو كالفرق بين تعريف الذكر باعتبار شكله الخارجي و بنيته العضوية التي تميزه عن الأنثى، وتعريفه باعتبار خصائصه الشكلية والعضوية والعاطفية والنفسية والعقلية والخلقية. ولم يهمل النقد القديم خصائص البناء الشعري واللغة الشعرية، ولكنه ذكر ذلك في عمود الشعر لا في تعريفه؛ فلا مجال إذن للقول إن التعريف القديم أهمل الخيال أو البناء والصورة، لأن تعريف الشعر باعتباره تصويرا[18] كان أسبق من تعريفه باعتباره كلاما موزونا مقفى، وتمييزه عن النثر باعتباره لونا من التأليف مختلفا وأسلوبا في النظم متميزا كان ديدن البلاغيين العرب، كما أن اعتبار الوزن شرط وجود وماهية لا شرط عمود وشعرية كان من المسلمات التي لا يجادل فيها؛ فقد رفض الجاحظ اعتبار بيتين رديئين من الشعر لأن الشأن عنده في إقامة الوزن و... جودة السبك، وكثرة الماء[19]. وقال ابن طباطبا أن "الشعر هو ما إن عري من معنى بديع لم يعر من حسن الديباجة، وما خالف هذا فليس بشعر[20]". ورأى عبد العزيز الجرجاني أن "أقل الناس حظا من هذه الصناعة من اقتصر في اختياره ونفيه، وفي استجادته واستسقاطه على سلامة الوزن، وإقامة الإعراب، وأداء اللغة..."[21] وذهب ابن رشيق أبعد من ذلك فقال: "إذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، واستظراف لفظ وابتداعه أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير"[22] فهل أوضح من هذا النص في نفي الشعرية عن الوزن وحده، والشاعرية عن الناظم لألفاظ بلا روح وأشكال دون إبداع؟ وفي أن عمود الشعر وروح الشعرية يقومان على

---

(18) قول الجاحظ: "فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير": (الحيوان، 131/3).

(19) الجاحظ، الحيوان، ج3، ص131.

(20) ابن طباطبا، عيار الشعر، ص55.

(21) علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد علي البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت. ص413.

(22) ابن رشيق، العمدة، 116/1.

أسس أخرى بعد الوزن والقافية؟ وهل ذهب حازم إلى أبعدهما ذهب إليه ابن رشيق عندما قال حازم: "وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة، واضح الكذب، خليا من الغرابة، وما أجدر ما كان بهذه الصفة ألا يسمى شعرا وإن كان موزونا مقفى، إذا المقصود بالشعر معدوم منه"[23].

وهكذا يتضح أن إضافة حازم لعنصر التخييل في مفهوم الشعر هي إضافة شكلية لا جوهرية. بمعنى أنها إضافة إلى تعريف الشعر لا عموده وشعريته. ومع التسليم بأنها إضافة مهمة تصف واقع الشعر، وتميز الشعر عن النظم كما تميزه عن واقع النثر، فإن الحقيقة تفرض الاعتراف بأنها لا تفيد في وضع حدود فاصلة بين الشعر والنثر؛ فإذا كان التخييل هو "إلقاء الشاعر خيالات وصورا، يستعين لها بالفنون البيانية، فيؤثر في السامع تأثيرا نفسيا تطهيريا، بسبب ما يتراءى له وكأنه حقيقة[24]". أو هو "عملية إيهام تفضي إلى تحسين أو تقبيح"[25] فإن ذلك لا يصح أن يعتبر خاصية في الشعر دون النثر، وإن كان "استعمال الاستعارات والمجازات في الأقوال الموزونة أليق من استعمالها في الأقوال المنثورة، ومناسبتها للكلام النثري المرسل أقل من مناسبتها للشعر"[26]، كما يعتقد ابن سينا.

وهكذا نخلص إلى الجواب على سؤال طرحناه: إنّ التعريف القديم ليس من القصور أو الفساد بحيث يحملنا على رفضه، بل هو صحيح دقيق باعتباره تحديدا للجنس لا غير. وإن التعريف الفلسفي هو إضافة مهمة ولكنه لا يوصف بالدقة والكمال، إذ لم يضف ما به الحد الفاصل بين الشعر والنثر. وإن التعريفين معا مجمعان على اعتبار الوزن والقافية حدين وركنين وشرطين وثابتين أساسين. وإن التعريف الجديد قام على الإضافة لا الثورة وعلى التواصل لا القطيعة، ولا وجه للاستناد إليه في صياغة مفهوم مغاير.

---

(23) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء،ص72.

(24) مصطفى الجوزو؛ نظريات الشعر عند العرب، ، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1402هـ- 1981م، ص117.

(25) جابر عصفور، مفهوم الشعر، ص128.

(26) المرجع السابق ، ص128.